﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

[الشُّعراء: 146 - 149]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

شـرُّ الـكُـفـران بـاللهِ أن يأكل العبدُ خيرَ ربِّه ثمَّ يعبدَ غيرَه

لمّا خاطب صالحٌ عليه السلام ثمودَ بما يدلُّ على حرصه عليهم بإخلاصٍ وصدقٍ، وساقَ لهم الدّليلَ على أمانته من الواقع الّذي يعرفونه عنه، فثبَتت بذلك له الأمانةُ أمامهم، وانتفى موجِبُ الخيانة، بتجرُّده عن الغرض والمصلحة؛ شَرعَ بعد ذلك "يُنكرُ عليهم أكلَ خيره وعبادةَ غيره، فقال مُخوِّفًا لهم من سَطَواته، ومُرغِّبًا في المزيد من خيْراته، مُنكرًا عليهم إخلادَهم إلى شهوة البطن، واستنادَهم إلى الرّفاهية والرِّضا بالفاني قائلًا: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾: (ترك) أَصْلُ التَّركِ: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: تَرَكْتُ الشَّيْءَ إذا كَفَفْتَ وأَعرَضْتَ عنه، ويَأْتي بمعنَى التَّخلّي عن الشَّيء[2]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ؛ أيْ: أَسقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا؛ أيْ: جَعلهُ يَفْعَلُهُ[3]، ومن معانيه: المُفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْض[4]، والمقصودُ بالتَّرك في الآية: التَّخليَةُ.

2) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: (جنَّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ، فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ[5]،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 74.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جن).

والجَنَّةُ أيضًا: الحَديقَةُ ذاتُ الشَّجَرِ، والجمعُ الجِنانُ[1]؛ وهو ذاكَ لأَنَّ الشَّجَرَ بورَقِه يَستُرُ، ويُقال: جنَّ النَبْتُ جُنونًا؛ أيْ: طال والتفَّ وخرج زَهْرُهُ[2]، وسُمّيت الجنَّة بذلك إمّا تشبيهًا بالجنَّة في الأرض - وإن كان بينهما بَون - وإمّا لسَتره نِعَمَها عنّا[3]، والمُراد بها في الآية: حدائق ثمود وزراعاتُهم.

2) ﴿طَلْعُهَا﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صحيحٌ، يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا[4]، والطَّلْعُ: نَوْرُ النَّخْلَةِ ما دامَ في الكافور، الواحِدَةُ طَلْعَةٌ، وطَلَعَ النَّخلُ طُلوعًا، وأَطْلَعَ وطَلَّعَ: أَخرَجَ طَلْعَه، وطَلْعُه: كُفُرّاه قَبْلَ أَن يَنْشَقَّ عَنِ الغَريضِ، والغَريضُ يُسَمَّى طَلْعًا أيضًا[5]، ونخلةٌ مُطْلِعَةٌ أيضًا، إذا طالَتِ النَّخيلَ؛ أيْ: كانت أطولَ من سائرها، والمُراد بالطَّلع في الآية: وعاءٌ يَطلُعُ من النَّخْلِ فيه ثَمَرُ النَّخلةِ في أَوَّلِ أَطواره، وسُمّي طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ[6].

3) ﴿هَضِيمٌ﴾: أصلُ (هضم) يدُلُّ على كَسْرٍ وضَغْطٍ وتَداخُلٍ، وهَضَمتُ الشَّيءَ هَضْمًا: كَسَرْتُهُ[7]، والهضيم: المتكَسِّرُ من لينِه ورطوبتِه، من قَولِهم: هضمَ فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصَه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ إنَّما هو التنَقُّصُ منه من رطوبتِه ولينِه؛ إمّا بمَسِّ الأيدي، وإمّا بركوبِ بَعضِه بعضًا[8]، والمُراد به في الآية: اليانعُ والنَّضيج، أو الرَّطبُ اللَّيِّن اللَّذيذُ، الَّذي تداخل بعضُهُ في بعضٍ[9].

4) ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَجْرِ شَيءٍ وتَسْوِيَتِهِ بِحَديدَةٍ[10]، والنَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ لتجعلَه على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحتِ النَّحيتِ والصَّنم والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأَجسام الصُّلبة المُحتمِلةِ لذلك، وقد يُتجوَّز به في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جن).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (جنّ - جنن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (جنّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هضم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هضم).
(9) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 269.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحت).

غيرها[1]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[2]، والنُّحاتَةُ: ما يسقُطُ من المَنْحوتِ، والنَّحيتَة: الطّبيعةُ الَّتي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[3]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِنْ وسَطه أوْ من جوانبه.

5) ﴿فَٰرِهِينَ﴾: أصلُ (فره) كلمةٌ تدلُّ على أَشَرٍ وحِذْقٍ، من ذلكَ الفارِهُ الحاذِقُ بالشَّيءِ[4]، وجمعه فُرَّهٌ، ويُقال ذلك في الإنسان وفي غيره، وقُرِئَ: (فَرِهينَ) في معناه، وقيل: معناهما أَشِرينَ[5]، والفَرِهُ: الأَشِرُ، والفارِهةُ: القَيْنَةُ وما يَتْبعُها مِنَ المَواهب[6]، ولفظ ﴿فَٰرِهِينَ﴾ في الآية مُشتقٌّ من الفَراهةِ وهي الحِذْقُ والكَياسَةُ؛ أيْ: عارفينَ حذِقينَ بنَحْتِ البُيوتِ من الجبالِ بحيثُ تَصيرُ بالنَّحتِ كأَنَّها مَبنيَّةٌ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـذكـيرُ الـقـومِ بـنِـعَـمِ الـلـه عليهم بما مكَّن لهم مِن خَيراتٍ

أتظُنّون أنَّ اللّهَ يتركُكم تتنعَّمون في هذه الخَيراتِ آمنينَ لا تخافونَ، مُتمتِّعين في الجنّات والعيون، والنَّخيلِ ذاتِ الرُّطبِ الهضيمِ اللَّيِّنِ اللَّطيف، والزُّروع والثِّمار، وتطمعونَ في ذلك، وتظنّون ألّا دار للجزاء على الأعمال؟ لا يُعقلُ أنْ تبقوا على الشِّرك والكُفر، وأنتم ترفُلون في هذه النِّعم، وتتمتَّعون بهذه الخيرات، وتَنحِتون مِنَ الجبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها[8].

(1) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نحت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (نحت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فره).
(5) الرّاغب، المُفردات: (فره).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فره).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 618، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 127، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 596، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 19/ 199.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة عما قبلها:

الـفـصـلُ بين الجملتيْن لكمالِ الانقطاعِ

الجملةُ في قوله سبحانه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ هي جملةٌ إنشائيّةٌ لفظًا ومعنًى، وسابقتُها ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي جملة خبريّةٌ لفظًا ومعنًى[1]، وهذا يستدعي كمالَ الانقطاع بينهما، ولذلك كان الفصل بينهما، وأفاد هذا القطعُ والانتقال بتغييرِ النَّظْم من الإخبار والإرشاد وبيان الحقيقة إلى التّساؤل والجدال والإفحام – مفاجأةَ القوم المُكذِّبين وتذكيرَهم بأسلوبٍ مُتجدِّد بالنِّعَم المحيطة بهم الَّتي تستحقُّ الشُّكرَ للمُنعِم تعالى.

معنى الهمزةِ وغرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾:

لا أمـانَ من العـذابِ مع تحقُّقِ الكُفرانِ

الهمزة في: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ هي همزةُ الاستفهام، لكنَّ الاستفهامَ بها هنا غيرُ حقيقيٍّ، والظّاهر فيه أنّه للإنكار والتّوبيخ؛ فقد نزَّل حالَهم منزلةَ مَنْ يظنُّ الخلود ودوامَ النعمة، فهم وإنْ لم يكونوا مُنكرينَ للموت والفناء إلّا أنَّ حالَهم مع الكُفران وتركِ الشُّكر للمُنعِم حالُ مَن يظنُّ المُكوثَ والخلودَ، فخاطبَهم بالاستفهام الإنكاريِّ التّوبيخيِّ؛ أيْ: إنكار اعتقادٍ وظنٍّ[2] أنهم متروكونَ آمنينَ كما يشاؤون دونَ خوفٍ من عقاب، مع ما ظهر منهم من كُفرانِ الاعتقاد، وكُفرانِ نِعَم الله عليهم، وهو إنكار للوقوع وإبطالٌ له ونفيٌ لأنْ يُترَكوا فيما هم فيه من النعمة[3]، مع ما هم عليه من الكفر بأنواعه، والمعنى: (أتظنّونَ أنَّكم تُتركون في دياركم آمنين، وتطمعون في ذلك، وأنْ لا دار للمُجازاة؟[4])، وجوَّز الزّمخشريّ أنْ يكون غرضُ الاستفهامِ

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(3) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 258.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 524.

التّذكيرَ بالنِّعمة في تخلية الله إيّاهم وما يتنعَّمون فيه من الجنّات وغير ذلك، مع الأمن والدّعة في هذا المكان من النّعيم[1]. فيكونُ الاستفهام على هذا تقريريًّا، لكنْ كونُه للإنكار أظهرُ وأبرزُ وأوفقُ للنَّظم وأسوَغُ للذّوق البلاغيّ[2].

علّةُ الإنكارِ لفعلِ التَّركِ في قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾:

النّعَمُ إنّما تدومُ بالشُّكرِ لا بالكُفرِ

قال الطّاهر ابنُ عاشور: "سلّطَ الإنكارَ على فعل التَّرك؛ لأنَّ تركهم على تلك النّعَم لا يكون، فكان إنكارُ حصوله مُستلزِمًا إنكارَ اعتقاده، وهذا الكلام تعليلٌ للإنكار الَّذي في قوله سبحانه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإنكار عليهم دوامَ حالهم يقتضي أنَّهم مُفارِقونَ هذه الحياة وصائرونَ إلى الله، وفيه حثٌّ على العمل لاستبقاء تلك النّعَم بأن يشكروا الله عليها"[3].

نكتةُ بناءِ الفعلِ لغيرِ فاعِلِه:

الغرضُ الأهمُّ إنكارُ الحدثِ الواقعِ عليهم، وهو التّركُ المُكنَّى به عن غفلتِهم

بُني الفعل ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله لغرضيْن؛ **الأوّل:** الاختصارُ والعلْمُ بالفاعل وهو الله تعالى، فإنّه لا يَقدِر على تَركِهم وإبقائِهم في نِعَمهم أحدٌ سواه، **والثّاني:** مَناطُ الكلام هو الحدث نفسه الواقعُ عليهم وهو التّرك، وليس المُحدِثَ له؛ لكونه معلومًا كما سلف بيانه؛ فالكلامُ مُتَّجِهٌ إلى الحدث ومَن وقعَ عليه التّركُ، الَّذي قُصد بالتّعبير به الكنايةُ عن غفلتهم وطول أَمَلِهم، ولذا أُسنِد الفعلُ إلى ضمير الجماعة؛ للدّلالة على أنَّهم مُتواطِئون على الغفلة، مُتوافقون على عدم الشُّكر.

نكتة التعبير بالجار في قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾:

تأشيرُ محلِّ التَّركِ تعميقٌ للاستفهامِ الإنكاريّ

﴿فِي﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ للظّرفيَّة المكانيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 327.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 111.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.

الحقيقيّة، وهي بلادهم[1] المُشارُ إليها بقوله: ﴿هَٰهُنَآ﴾، وفائدةُ الإتيان بالظَّرف تأشيرُ محلِّ التَّرك؛ لتعميق معنى الاستفهام الإنكاريِّ بتحديد مكانه بالذّات.

علةُ التَّعبيرِ بالموصول:

التَّعبيرُ بـ (ما) أجمعُ وأخصرُ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي) وظرف المكان صلتُها[2]، وسِرُّ إيثار التَّعبير بها دون التَّعبير بـ(الذي)، هو ما تُفيده من العموم والإبهام مع الاختصار؛ فهي تُغني عن تعديد ما تدلُّ عليه، فقد قصدَ بها "جميعَ ما يُشاهدونه، وهذا إيجازٌ بديع"[3].

دلالة (ها) التّنبيهيّة:

تنبيهُ الغافلين عـن الحـقيـقـةِ وظيفةٌ لُغويّةٌ

تدلُّ (ها) التّنبيهيّةُ في قوله سبحانه: ﴿هَٰهُنَآ﴾ على شدَّة ما هم فيه من غفلةٍ عميقةٍ، صرفَتْهم عن المُنعِم، وأعمَتْهم عن رؤية آثاره الدّالَّة عليه حتّى استحقّوا أنْ يُنبَّهوا قبلَ الإشارة ويَستفيقوا قبل أداء العبارة.

نكتةُ الإشارةِ بالقريبِ في قوله: ﴿هَٰهُنَآ﴾:

الدَّليلُ الحِسّيُّ أبلغُ في الإقناعِ

أشارَ النظمُ باسمِ الإشارةِ القريب (هنا)؛ لأنَّ الإشارةَ كانت إلى المكان الحاضر القريب[4]، وهو ما يُشاهدونه ويُعايشونه ممّا هو قريب منهم حاضرٌ لديهم، وهي بلادهم الَّتي يعيشون فيها آمنين مُنعَّمين، ليكون الكلام أوضح والإقناع أنفذ، ولا يخفى أنَّ اسم الإشارة يدلُّ على مكان محسوسٍ، قد غفلوا عن رؤيته والاعتبار بمقاصده، فيَلفتهم إليه ليأخذوا منه العِبرة والموعظةَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادّة الأمانِ:

من أعظمِ نِعَمِ الله على العبادِ نعمةُ الأمنِ

عبَّر في قوله تعالى: ﴿هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ بمفردةِ (الأمن) وخصّها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 524، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

من بين النّعَم؛ لأنَّ نعمة الأمن تتوقّفُ عليها كلُّ النعم، فلا تذوّقَ لنعمةٍ مهما كانت إذا انعدمَ الأمنُ، وغابتِ الطّمأنينة، وسادَ الخوف، ولذلك نصَّ عليه القرآن، وذكّر بأنّه نعمةٌ عظيمةٌ امتنّ بها على قريش بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ۝٤﴾ [قريش: 4]، وكذلك كان مقابِلُه وهو الخوف من نِقَم الله على عباده الّذين غضِب عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النّحل: 112]، كما جُمعت الكلمة نظرًا إلى أنَّ نعمة الأمن كانت تُطوِّق كلَّ واحدٍ منهم دونَ استثناءٍ.

نكتةُ التّعبيرِ باسم الفاعل:

اللهُ تعالى يُؤَمِّن أولياءَه بتوكُّلهم عليه

عبَّر في قوله تعالى: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ باسمِ الفاعلِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ لكونهم مُعتمِدين في أمنهم على أنفسهم، وليس على الله تعالى، ولذا لم يَقُلْ: (مؤَمَّنين) باسم المفعول، فالله تعالى إنَّما يُؤَمِّنُ أولياءَه، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48]، وأفاد اسم الفاعل دوامَ الأمانِ واستمرارَه فيهم، ولذا كانوا في رغَدٍ من العيش حتّى أَنساهم الحقيقةَ الضَّروريّة؛ وهي وجوبُ المغادرة بالموت والفناء.

دلالة الحال في قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾:

وظيفةُ الحالِ البيانُ للمُجمَل

قوله سبحانه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مُبيِّنة لبعض ما أجملَه قولُه: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾، وذلك تنبيهٌ على نعمةٍ عظيمةٍ لا يدلُّ عليها اسم الإشارة؛ لأنّها لا يُشارُ إليها، وهي نعمة الأمن الّتي هي من أعظم النّعم، ولا يُتذوّقُ طعمُ النّعَم الأخرى إلّا بها[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.

موقعُ الجارّ والمجرور في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾:

قولُه سبحانه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ بإعادة العامل[1]، وهو تفصيلٌ وتفسيرٌ لإجماله، وتبيينٌ لإبهامه، فقوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ مُجمَل، قد فسَّره قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، فقد أجملَ ثمَّ فصَّل توضيحًا وتبيينًا، وذلك أوقعُ في النّفس وأجودُ في التَّعبير، كما أجملَ هودٌ عليه السلام في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢﴾ [الشُّعراء: 132] ثم فصَّل في قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ [الشُّعراء: 133 - 134][2].

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ، والتّبيينُ بعد الإبهامِ

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ للظّرفيّة الحقيقيّة؛ أيْ: مُستقرّين في ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وفائدةُ التَّعبير بالظّرفيَّة الدّلالةُ على كمال التَّنعُّم؛ لأنَّ استقرارهم فيها وحلولَهم داخلها يستلزم كمالَ التّرفُّه بتلك الأمكنة والبقاع.

الظّرفيّةُ تستلزمُ الحصولَ والتَّنعُّم بالمظروفِ

لطيفةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

عبَّر بـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للدّلالة على كونها حديقةً مكتملةً؛ فيها الأشجار وفيها النّخيل والأعناب، فإنّه لا يُقال للحديقة (جنّة) إلّا إذا كانت مُشتملةً على نخيلٍ وأعنابٍ، فإذا كانت عامرةً بالأشجار لكن لا يوجدُ بها نخيلٌ وأعنابٌ؛ فإنّه يُقال لها: حديقةٌ؛ ولا يُقال لها: جَنَّة[3].

الجنّةُ هي المُشتملةُ على النّخيل والأعناب، وإلّا فهي حديقةٌ

دلالةُ الجمع في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

التَّعبير بالجمع في ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دون الإفراد (جنَّة) مُشعِرٌ بكثرة ما أنعم الله به عليهم، فقد امتنَّ الله عليهم بجنّاتٍ لا جنّةٍ واحدةٍ، وكذلك توجد في هذه الجنّات عيونٌ نابعةٌ[4] في داخلها تتلاءَم مع

جمعُ الجنّاتِ دلالةٌ على تعدُّدها وكثرتِها

(1) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.
(3) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جنَّ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عين).

كثرتها، ولهذا جمعَها أيضًا، ونكتةُ الجمع توضيحُ تلك النّعَم العظيمة والكشفُ عمّا فيها من آياتٍ تدلُّ على المُنعِم تعالى، وذلك الجمع يتناسقُ مع مقام التّذكير والامتنان، والتّذكير بما يجبُ عليهم إزاءَها.

دلالةُ التّعبير بـ﴿وَعُيُونٍ﴾ دون غيرها:

العيونُ: مَنابعُ تُحفر في الضِّفاف[1]، وداخلَ البساتين؛ وإنّما عبَّر بـ(العيون) دون الأنهار فلم يقل: (في جنّاتٍ وأنهار)؛ لأنَّ منطقة الجزيرة العربية الَّتي سكنَتْها ثمود وفيها ديارها، لا توجد فيها أنهار، ومعتمدُها على الآبار والعيون الَّتي تحفَر؛ فينبع منها الماء.

العيونُ مُنتشرةٌ في ثمود بخلافِ الأنهارِ

معنى الواو العاطفة في قوله: ﴿وَعُيُونٍ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ للعطف، عُطف بها (عيون) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بقصد الجمع والتّشريك بينهما مع الدّلالة على التّغاير، فكلٌّ منهما نعمةٌ مُستقلّةٌ، لكنْ لمّا كانت العيون تابعةً للجنّات، وأنّ مهمتها الأساس هي سقيُ الجنّات وما فيها من زروعٍ ونخيلٍ وأشجارٍ، فلا جَرَم قدَّم الأهمَّ والأصلَ - وهو الجنّات - عليها، وللإشارة إلى اعتماد الجنّات في الوجود عليها قُرِنا معًا.

من كمالِ النَّعيمِ وفرةُ الماءِ في الجنّاتِ لسقيِها والانتفاعِ بها، وللتّمتُّع برؤيتها أيضًا

دلالةُ العطفِ في ﴿وَزُرُوعٍ﴾:

الواو عاطفةٌ في قوله تعالى: ﴿وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ﴾، عَطفتْ ما بعدَها على ما قبلَها، بقصد الجمع والتّشريك مع دلالة التّغاير بينهما، وقوله سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ﴾ جمع (زرع) وهو النّبات الَّذي يكون منه الحَبُّ المُتراكِبُ، ويتغذّى منه الإنسان، والّذي يكون منه السّنابل من قمحٍ وأرزٍ وغير ذلك من النّعَم الَّتي أنعم بها على الإنسان في غذائه، ويشمل النّبات والحشائش الَّتي تكون كلأً للأنعام[2]. وبهذا يظهر أنَّ الجنّاتِ تشمل الأشجار المُحمَّلة بالفاكهة

التّغايرُ بين المُتعاطِفَيْن مُظهِرٌ لتنوُّع النِّعَم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 132.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5390.

بأنواعها والنَّخيل، والزّروع هي الحبوب والبقوليّات وسيقانُها الَّتي تكون كلأً للأنعام.

دلالةُ استعمال صيغة الجمع للزّرع:

جمعَ الزّروع لكثرتها في ذاتِها وكثرةِ أنواعِها

جمعَ (الزروع) فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ اعتبارًا بكثرتها وتنوُّعها؛ فهي تشملُ الحبوبَ بأنواعها، وكذلك البقوليّات والخضروات، وكلّ ما هو خِلاف الأشجار والنّخيل؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [النّحل: 10 - 11]؛ فعَطف على الزّرع الأشجارَ بأنواعها وكذلك النّخيل، بما يُفيد المُغايَرة بينها.

دلالةُ تخصيصِ النَّخل بالذِّكْر:

خُصَّ النَّخلُ بالذِّكر لفضلِهِ على سائرِ الأشجارِ

يجوز أن يكون ﴿وَنَخۡلٖ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ﴾ من باب ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ بعطفه عليه؛ لأنَّ الجنّات تشمل النّخلَ ضمنًا، ويكون السِّرُّ في إفراد (النّخل) ما له من فضلٍ خاصٍّ على سائر أشجار الجنّات، كما في تخصيص جبريل وميكال بالذِّكر بعد دخولهما في لفظ الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، ويجوز أن يكون المُراد بالجنّات ما يشمل سائر الأشجار خلافَ النّخل؛ لأنَّ لفظ الجنّات مُطلقٌ، يصلحُ للكلِّ والبعض، وقرينةُ إرادة البعض عَطفُ ﴿وَنَخۡلٖ﴾ عليه، فأفردَ النّخل بالذِّكر لعدم تناول الجنّات له[1].

ويجوز أن يكون تكريرًا للشَّيْء الواحد بلفظٍ آخر، فإنّهم يُطلقون الجنّةَ ولا يريدون إلّا النّخل، كما قال زهير:

كأنّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقتَّلةٍ *** منَ النَّواضحِ تَسقي جنّةً سُحُقا[2]

(1) ابن التَّمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 289.

(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 541، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 258.

والأنسب لِما سيأتي أنَّ النَّخل المذكور ضمنَ الجنّات يشمل المُذكَّر والمُؤنَّث منه، وأمّا النّخل المذكور هنا؛ فمختصٌّ بالإناث بقرينة ﴿طَلۡعُهَا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ هنا بـ ﴿وَنَخۡلٍ﴾ دون (نخيل):

التفنّنُ في استعمالِ اسمِ الجنسِ والجمعِ

النَّخلُ اسم جنسٍ يُستعمل مُفردًا وجمعًا، والنّخيل هو الجمع فقط، والتّغايرُ في استعمال كلٍّ منهما من باب التّفنُّن، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [القمر: 20] وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧﴾ [الحاقّة: 7] وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ [ق: 10]، والنّخيل هو الجمع[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ﴾ [النّحل: 11] وقوله سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ [النّحل: 67].

موقعُ الجملةِ الاسميّة: ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾:

وظيفةُ النّعتِ الكنايةُ عن جمالِ النّخيلِ

الجملة الاسميّةُ في قوله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ في محلِّ جرٍّ نعتٌ لـ ﴿وَنَخۡلٍ﴾، وهي داخلةٌ في حيِّز القول؛ فمحلُّها النَّصب بهذا الاعتبار[2]، وأفادت الجملة تصوير النّخل بأنَّ طلْعَها ليّنٌ لطيفٌ كنايةً عن أنَّ النَّخل فتيَّةٌ ناضرةٌ بهيّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَلۡعُهَا﴾ دونَ (تمرها) أو (ثمرها):

المُرادُ بالنَّخل هنا المُؤنَّث منه بقرينةِ تأنيث (طلعها)

قولُه سبحانه: ﴿طَلۡعُهَا﴾ يدلُّ على أنّ المُراد بالنّخل هنا المُؤنّث، واللّفظ يوحي بذلك، فكلمة النّخل تُستخدم للمُفرد والجمع، والمُذكَّر والمُؤنَّث، والنَّعتُ ﴿طَلۡعُهَا﴾ دلّ على أنَّ المُراد بها المُؤنَّث دون المُذكَّر، وهو الأنسب؛ "لأنَّ الإناث ولّادة التّمر، وطلعُها فيه لُطفٌ"[3]، ولم يُعبِّر بالتّمر أو الثّمَر؛ لأنّ المقصود بالطّلع هو ما يُعرف بـ (الكِم) وهو وعاءٌ يطلعُ من النّخل، فيه ثمر النّخلة في أوّل أطواره، يخرج كنَصل السّيف في باطنه شماريخ القِنْوِ أشبَهَ بالعنقود من العنب،

(1) الرّاغب، المُفردات: (نخل).
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 19/ 216.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

وبعد خروجه بأيام ينفلقُ ذلك الوعاء عن الثّماريخ، وهي الأغصان الَّتي فيها الثَّمر كحَبٍّ صغيرٍ، ثمّ يغلظ ويصير بُسرًا، ثمَّ تمرًا[1]. أو المُراد بالطّلع أوّلُ ما يَطلع، قال الزّهري: "الطَّلعُ هو اللَّطيف، أوّلُ ما يخرج، وقال الزّجّاج: هو الَّذي رطبُه بغير نوى"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ فعيل في قوله: ﴿هَضِيمٌ﴾:

الـهـضـيـمُ مُستعارٌ للّيِّن ولطيفِ الطّلعِ للـدّلالـة على جـودةِ تـمـرِه الخارجِ منه

هضيم: فعيلٌ بمعنى مفعول؛ أيْ: مهضومٌ، وأصل معنى الهضم لغةً: الانحطاط أوِ الشّدخ والشّق، ثمّ تُجوِّزَ به عن الرّقّة واللّطف واللّين، فقد استُعير لفظ ﴿هَضِيمٌ﴾ هنا للدّقيق الضّامر، كما يُقال: امرأةٌ هضيمُ الكشح، وتلك علامةٌ على أنّه يُخرجُ تمرًا جيّدًا[3]. وقيل: استعمالُ لفظ الطّلع مجازٌ عن التّمر[4]، فيكون وصفه بـ(الهضيم) للدّلالة على لينِه وجودتِه، كما نلحظه الآن في بعض التُّمور الفاخرة، ويحتمل أن يكون اللُّطف في الطَّلع بسبب كثرة الحِمل، فإنَّه متى كثر لَطُفَ ودَقَّ، فكان هضيمًا، وإذا قلَّ الحمل جاء التّمر فاخرًا، لكن هنا لمّا كانت منابتُ النّخل جيّدةً، وكان السّقيُ لها كثيرًا، وسلِمت من العاهة؛ كبُر الحِمل مع لُطفِ الحَبِّ[5].

سرُّ التّرتيب في الآيات:

التّـنـاسـقُ الـعـجـيـبُ في التّرتيبِ بين هذه المُفرداتِ

في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ﴾ رتّبتْ هذه المُفرَدات الأربع في نسقٍ عجيبٍ، قُدِّم فيه الأهمُّ على المهمّ، والأصلُ على التّابع، والعامُّ على الخاصّ؛ فقوله سبحانه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٌ﴾ بدأ بذِكْرِ (الجنّات) وهي الأصل والأهمّ الَّتي تشتمل على الأشجار والأعناب والنّخيل، ثمَّ عَطَفَ عليها (العيون)؛ لكونها تابعةً لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 181.

وخادمةً وسببًا في وجودها، ومن ثَمَّ اقترنت بذِكْرها، ثم عطف الزُّروع لأهميَّتها بالنّسبة للإنسان والحيوان معًا، ولكونها جزءًا من الجنّات حال كونها مزروعةً بين أشجارها، وهو الأنسب لذِكْرها بعدها، أوْ أنَّها مغايرةٌ لها إنْ زُرعت استقلالًا، ثمّ ذَكَرَ النّخل؛ وهو أحد أشجار الجنّات المُؤنّثة منها والجياد فيها، فكان ذِكْرًا للخاصِّ بعد العامِّ، لفضله على سائر الأشجار، وبهذا يظهر لنا هذا التّناسق العجيب في التّرتيب بين هذه المُفرَدات.

براعةُ التخصيصِ في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ خُصِّص النَّخل بهذا الوصف؛ لأنّه وحدَه الَّذي تكون فيه هذه الأكمام أوِ الشّماريخ المعبَّر عنها بالطَّلع، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرّحمن: 11]، وأمّا غيرُها من الأشجار، فثمرُها يبدأ زهرًا ثمَّ يتشكَّل، كما أعطى الوصفُ دلالةَ التّأنيث للنّخيل، وأنّها جيّدةُ التّمر.

النَّخلُ وحدَه الَّذي تكونُ فيه هذه الأكمام المُعبَّر عنها بالطَّلْع

تحديد المعطوف عليه في قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾:

الواو للعطف، عطفتْ جملة ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ على جملة ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ في حَيِّز الاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ[1]، وقيل: عطف على ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أيْ: وناحتين[2]. والأرجح عطفها عليه؛ لأنّ الإنكار والتّوبيخ يتسلّط على حالة الأمن في العيش والنّحت في الجبال، مع أنّهم مغادرون أمنهم ومساكنهم، وإنّما عطف الجملة الفعليّة على الحال المُفردة من أجل استحضار صورة النَّحت كأنَّها مُشاهَدةٌ محسوسةٌ، وللدّلالة على غرابة اتّخاذ الجبال بيوتًا بالنّحت والعمارة فيها.

استحضارُ الصّورة تأشيرٌ على غرابةِ الصُّنع

معنى مادّة (النَّحتِ):

النَّحت يُستعملُ في معنى الحفر في شيءٍ صلْبٍ؛ كالخشب

(1) الجمل، حاشيته على الجلالَيْن: 5/ 401.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.

والجبل والصَّخر، ومن ثَمَّ فالنَّحت هو اللّفظ المناسبُ في الآية، لأنَّهم نحتوا الجبال، فجعلوها بيوتًا فارهةً متينةً مؤمَّنةً كالقلاع والحصون، وهذا البناء يقيهم هجومَ الأعداء، ومن ثَمَّ يكون مُحقِّقًا للأمن بشكلٍ أكبر، ولذا كان العطف على ﴿ءَامِنِينَ﴾ مناسبًا؛ لأنّه صورةٌ من صور الأمن والهدوء والثّقة بالنّفس، حتّى نسوا وغفلوا عن المُنعِم سبحانه وتعالى اعتزازًا بما لديهم.

النَّحتُ للجبالِ وقـايـةٌ مـن الأعـداء وثـقـةٌ واعتزازٌ بالنَّفس

دلالةُ صيغةِ المضارعةِ في قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾:

عبّر بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ خلافًا للمعطوفِ عليه المفرد ﴿ءَامِنِينَ﴾، لاستحضار الحالةِ في نحتهم بيوتًا من الجبالِ[1]، ممّا يُزيِّن لهم حالةً من القوّة والسُّلطة والسّيطرة فتُلهيهم وتُنسيهم نِعَمَ الله تعالى الَّتي يجب شكرُها.

نكتةُ ذِكْرِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾:

ذُكِرَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ تحديدًا للمنحوتِ الَّذي يرسم صورةً من القوّة والعَظَمَة لقوم ثمود، حتّى جعلوا بيوتهم كالجبال في القوَّة والمَنعة، فينامون آمنين لا يخافون عدوًّا ولا يُغير عليهم مُعتدٍ، فقد كانوا في ذلك أهل خبرةٍ لا يُباريهم فيها سواهم، وفي ذلك إشعارٌ بمدى خبرتهم في نحت الجبال وانفرادهم به بما سوَّغ اختصاصَهم به، وذلك أنَّهم قد "كانوا ينحِتون بيوتهم من الجبال، لمّا طالتْ أعمارُهم، وتهدَّم بناؤهم من المَدَر"[2].

تحديدُ المنحوتِ يـرسـمُ المعنى الدَّقيقَ

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ابتدائية؛ أيْ: مبتدأُ نحت البيوت ومنشؤها من الجبال، ومَن ينحت الصَّخر ويصوِّر منه

(مـن) ابـتـدائيّـةٌ وهو الأظهر، أوْ تبعيضيّةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 176.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 130.

البيوت والقلاع، لا بد أن يكون فيه من قوَّة البدن ما يساعده على بلوغ هذا القصد، ولذلك ضُربت بقوتهم الأمثال، وإلى هذا أشار القرآن في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 6 - 9].

ويمكن أن تكون تبعيضيّةً؛ والمعنى أنّهم ينحتون بعض الجبال، والأوّل أنسبُ وأرجحُ في بيان النِّعَم الَّتي خصَّهم الله بها، حتّى اطمأنّوا إليها ونسوا يومَ حسابهم ورجوعَهم للحساب عندَ ربِّهم على تلك النِّعَم والهِبات والعيون والجنّات.

سرُّ المجيء بـ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾:

ذِكْـر (مِـن) في السّياقِ المُفصَّل وحـذفُـهـا في السّياقِ المُجمَلِ

في سورة الأعراف وردت الجملة بدون حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ حيث قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74]، وهنا في سورة الشُّعراء، وكذا في سورة الحِجْر في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحِجْر: 82] ذُكِر حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾.

أمّا في سورتي الحِجْر والشُّعراء؛ فقد سبق ذِكْرُ معنى ﴿مِنَ﴾ وسرّ مجيئِها، وأمّا ما في سورة الأعراف من عدم ذِكْرها؛ فلأنّه اكتفى بذِكْرها فيما قبلها؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74] فلمّا قال: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ [الأعراف: 74] اكتفى به ولم يُعدَّ (من الجبال)[1]، ولعلَّ الفرق بين ذِكْرها وعدم ذِكْرها أنَّ النَّحت إن كانَ من الجبال فإنّه يُفيد أنَّ النَّحت قد وقع في جزءٍ من تلك الجبال، بخلاف نحت الجبال فإنّها قد تحوَّلت من كونها جبالًا وصارت بيوتًا مسكونةً، وأحسب أنّه إنْ كان التّركيز على النّحت للجبال بشكلٍ مُجْمَلٍ لم

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 124.

تُذكر (من) فيها، وإنْ كان التّركيز على ذِكْر النَّحت مُفصَّلًا؛ فإنَّ النَّظم يَذْكُر (من)؛ لأنّها تُفيد تفصيلًا أكبر وأوضح لعملية النَّحت.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿ٱلْجِبَالِ﴾:

عبَّر بمُفردة ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ هنا مع النَّحت فجعلها مُتعلَّق النَّحت؛ لأنَّه لا يكون إلّا للأجسام الصّلبة كصخور الجبال ونحوها، أمّا بناء البيوت والقصور فلا يناسبها فعلُ النَّحت، ومن ثمَّ لمّا عرض للقصّة في سورة الأعراف فرَّق بين البيوت المنحوتة في الجبال والقصور المبنيّة في السُّهول، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74].

النَّحتُ لا يكون إلّا للأجسامِ الصُّلبة كصخور الجبال

نكتةُ الجمعيّة في قوله: ﴿ٱلْجِبَالِ﴾:

لفظ (الجبل) يُطلق على كلِّ مرتفعٍ منها؛ فكلُّ مرتفعٍ جبلٌ، والجبل: ما علا من سطح الأَرْض واستطال، وجاوَزَ التلَّ ارتفاعًا[1]. ولهذا يُقال للمرتفعات المتجاورة: سلاسلُ الجبال، ويُقال: جبالُ مكّة، لا جبلُها، فلا يُقال عنها جميعًا: إنّها جبلٌ واحدٌ، ومعنى هذا أنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في سلاسل جبليَّة متجاورة، قد يجمع كلُّ واحدٍ منها عِدَّةَ بيوتٍ، وبعدها عدّة بيوتٍ أخرى في جبلٍ آخَر مُجاورٍ، ومن هنا كان الأنسب التَّعبيرُ بلفظ الجبالِ مجموعًا.

المرتفعاتُ المتجاورةُ هي جبالٌ وليست جبلًا واحدًا

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بُيُوتًا﴾ دون غيرها:

عبَّر البيان القرآنيُّ بكلمة (البيوت) لما لها من دلالةٍ على الأمان والسُّكون والاطمئنان؛ فالبيتُ في الأصل: مأوى الإنسان باللَّيل، والليلُ هو محلُّ المَخاطر، فما يأوي إليه الإنسان باللّيل هو ما يُحقّقُ له الأمان في أخطر الأوقات، قال الرّاغب: "يُقال: باتَ: أقام باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنهار، ثُمّ قد يُقال للمَسْكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل

لفظُ البيوت أنسب للنّحت في الجبال، وأكثر تحقيقًا للأمان ودلالةً عليه

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (جبل).

فيه"[1]، وأمّا لفظا (المنازل والدور)، وإنْ أُطلِقا عُرفًا على البيوت أيضًا، إلّا أنَّ أصلهما لا يدلُّ على ذلك الأمان والقرار الَّذي يدلُّ عليه لفظ البيوت، فالمنزِل - بكسر الزّاي: الدّار موضعُ النُّزول[2]. والدّار: المنزل والبيت اعتبارًا بدورانها وإحاطتِها بالحائط[3]. وهذا ما لا يكون في البيوت المنحوتة، فليست تُحاط بحائطٍ يدور حولها؛ فإنَّها تكون كتلةً واحدةً منحوتةً في باطن الصَّخر.

دلالةُ لفظِ ﴿بُيُوتًا﴾:

الجمعُ للكثرةِ، والتّنكيرُ للتّفخيمِ

جُمعت البيوتُ في الآية الكريمة للدّلالة على كثرتها، ونُكِّرت لتدلَّ على عظمتها وفخامتها وكونها في تشييدها عظيمةً متينةً؛ كالقلاع المُحصَّنة الَّتي تَحمي مَن كان داخلَها من كلِّ خطرٍ مُتوقَّعٍ، ويُلحظ أنَّ الجَمعَ كان على (بيوتٍ) لا على (أبياتٍ)، وذلك لإرادة الكثرة؛ إذ (فُعول) جمعٌ للكثرة، وأفعالٌ جمعٌ للقِلَّة، وأيضًا فإنَّ "البيوت بالمسكن أخصُّ، والأبيات بالشِّعر"[4] فيُقال: أبياتُ الشِّعر، لا بيوتُ الشِّعر.

دلالة الحال في قوله تعالى: ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

الحالُ بيانٌ لهيئةِ صاحبِه تقييدٌ لعامِلِهِ

قوله سبحانه: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ منصوبٌ على الحال من فاعل ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾؛ والمعنى: (وتنحتون حاذقين مُتحصِّنين بها مُعجَبين مُتجبِّرين)[5]، والحالُ بيانٌ لهيئةِ صاحبِه وتقييدٌ لعامله، فهو يوضِّح هيئة هؤلاء البنّائين الّذين كانوا حاذقين في النّحت والبناء مع العُجْبِ والكِبْر المُخالِط لقلوبهم أثناء النَّحت، كما أنّهم عند نحتهم لم ينظروا إلى إقدارِ الله لهم؛ بل أخذهم الغرورُ والكِبْر؛ فلم يشكروا تلك النِّعمة وذلك الإقدارَ لهم.

(1) الرّاغب، المُفردات: (بيت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نزل).
(3) الرّاغب، المُفردات: (دار).
(4) الرّاغب، المُفردات: (بيت).
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5391.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

تـنـوُّعُ المعنى وثراءُ التّوجيهِ

اختُلف في المُراد بـ(الفَراهة)؛ فقيل: النّشاط والقوّة والحِذْق؛ فإنَّ الحاذق يعملُ بنشاطٍ وطلَب قلب[1]، وقيل: البطَر، وقيل: هو في النّشاط حقيقةٌ، واسْتعْمالُه في الحذاقة مَجازٌ[2]. ولا يُنافيه تفسيره به في بعض كتب اللّغة؛ لأنّهم لا يُفرّقون بين الحقيقة والمجاز الواردَين عن العرب، أوْ أنَّه لِشُيوعه صار حقيقةً عُرفيّةً فيه، فلا غُبار عليه[3]، وسيأتي كلامٌ عن ذلك أيضًا عند توجيه القراءات في كلمة ﴿فَٰرِهِينَ﴾؛ والمعنى: أنّكم تنحِتون إظهارًا للقدرة ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾؛ أيْ: مُظهِرين النّشاطَ والقوّة، تعظيمًا لأنفسِكم وبطَرًا، لا لحاجتِكم إلى شيءٍ من ذلك[4].

دلالةُ صيغة اسمِ الفاعلِ: ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

رسـوخُ صفةِ البَطَرِ والاستطالةِ فيهم

دلّ التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله سبحانه: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ على استحقاقهم هذا الوصفَ الدّالَّ على رسوخه فيهم وثبوتِه عليهم، وذلك أنَّهم لم يكونوا يعترفون بنعمة الله عليهم فيما أنعمَ به من تمكينِهم من حَفْر الجبال ونَقْبها، والاحتماء بها والتَّحصُّن فيها، وإنَّما كانوا ثابتينَ على التّباهي والافتخار والاستطالة على النّاس بهذه النِّعمة، وقد ازدادوا بها كفرًا، بدلَ أنْ يعاوضوها حمدًا لله وشكرًا، ويُؤيِّد هذا المعنى أيضًا قراءةُ (فَرِهين)؛ لكونها صيغة مُبالَغة دالّةً على المُبالغة في اتِّصافهم بهذه الصِّفة.

براعة الجمع بين الحالَينِ دلالةً وصيغةً:

التّعريضُ بهم لكونِهم قد بدَّلوا نعمةَ اللهِ كُفرًا

الجمعُ بينَ هذيْن الحالَيْن ﴿ءَامِنِينَ﴾ و﴿فَٰرِهِينَ﴾ وما يدلّانِ عليه من حصول الأمن لهم مع حصولِ الفراهة والفخر، وبصيغةٍ واحدةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 259.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 75.

هي اسم الفاعل في كلٍّ منهما الدالَّةُ على ثبوت هذيْن الوصفيْنِ لهم، هذا كلُّه مُشعرٌ بعظمة هذه النّعمة الَّتي أنعمها الله عليهم، وبفخامة هذه البيوت المُتَّخَذة من الجبال ومَنَعَتِها، بحيث تَرُدُّ عنهم كلَّ طامعٍ وتَغيظُ منهم كلَّ حاسدٍ، وفي ذلك من التّعريض بهم ما فيه؛ لأنَّ المُتوقَّع منهم أن يُقابلوا هذه النِّعمة الَّتي حقّقت لهم الأمن الغذائيَّ والأمن الشّخصيّ، بالشُّكر لا بالكُفر والاستطالة على خَلق الله.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿فَٰرِهِينَ﴾:

العلم قد يكون وبالًا على صاحبه

في قوله سبحانه: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ قراءتانِ مُتواترتانِ؛ إذ قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وأبو جعفر ويعقوب: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بغير ألفٍ، وقرأ الباقون: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بألفٍ، والحُجَّةُ لمَن أثبتها أنَّه أراد بها: حاذقين بما يعملونه، والحُجَّة لمَن حذفها أنّه أراد بها: أشِرين، بَطِرين، مُفتخِرين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجنّات والحدائق والبساتين:

الجنّة هي الحائطُ المُحتوي على نخيلٍ وأعنابٍ، وإلّا فهي حديقةٌ

يُقال: جنّ الشيءَ يجُنّه جَنًّا: سترَه، وكلُّ شَيْءٍ سُتِر عَنْك فقد جُنّ عَنْك، والجَنَّة: الحديقةُ ذات الشّجر والنَّخْل، وجَمعُها: جِنان، وقيلَ: "لا تكون الجَنَّة في كَلام العَرَب إلّا وفيها نخيلٌ وعِنَب؛ فإن لم يكن فيها ذَلِك وكانَت ذات شجر؛ فهيَ حديقةٌ وبستانٌ ولَيْسَت بجَنَّة"[2].

الطَّلع والثَّمر:

الطَّلع هو أوّل مراحلِ الإثمارِ وأوّلُ أطوارِه، والثّمرُ آخِرُه

الطّلع هو ما يُعرف بـ (الكِم)؛ وهو وعاءٌ يطلع من النَّخل، فيه ثمرُ النّخلة في أوَّل أطواره، يخرج كنصل السّيف في باطنه شماريخ القِنْو أشبه بالعنقود من العنب، وبعد خروجه بأيام ينفلقُ ذلك الوعاء عن الشَّماريخ، وهي الأغصان الَّتي فيها الثّمر كحَبٍّ صغيرٍ،

(1) الفارسيّ، الحُجّة للقرّاء السَّبعة: 5/ 366، وابن خالَوَيْه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 268، وابن الجزري، النشر: 2/ 336.
(2) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جن).

ثُمَّ يغلُظ ويصير بُسْرًا، ثمَّ تمرًا[1]، أو أنَّ المُراد بالطَّلع أوّلُ ما يَطلُعُ التّمر؛ أيْ: في أوَّل مراحله، قال الزهري: هو اللَّطيف أوَّلَ ما يخرج، وقال الزَّجّاج: هو الَّذي رُطَبُه بغير نوى[2]. وقد استُعيرَ في الآية الوصفُ ﴿هَضِيمٌ﴾ للدّقيق الضّامر الَّذي هو الطّلع الَّذي يكونُ في الكِمِّ، كما يُقال: امرأةٌ هضيمُ الكشح، وتلك علامةٌ على أنّه يُخرِج تمرًا جيِّدًا[3]. ولذلك عبَّر هنا بالطَّلع، ولم يُعبِّر بالتّمر أوِ الثّمَر.

العُيون والآبار:

العيونُ: منابعُ تُحفَر في الضّفاف[4] وداخل البساتين والمزارع، وقد تكون العيونُ طبيعيّةً؛ أيْ: من صنع اللّه ومِنَحِه وليست من حفر البشر؛ أمّا الآبارُ فهي ما يقوم البشر بحفرها للإفادة منها في الشُّرب وفي الزِّراعة؛ وعلى هذا فكلُّ بئرٍ يكون من العيون؛ وليست كلُّ عينٍ بئرًا ولا منها.

كـلُّ بـئرٍ هي مـن الـعُـيـون، وليست كلُّ عينٍ بئرًا أوْ منه

الفراهة والحِذق:

الحِذْق هو النَّشاط والقوَّة في طلب الشَّيء بإدراكٍ وإتقانٍ ووعيٍ، وهو أحد معاني الفراهة، كما سلف بيانُه، وأصله كما يقول العسكريّ: حِدّة القطع، يقال: حَذِقَه إذا قطعه، وقولهم: حذِق الصَّبيُّ القرآنَ؛ معناه أنَّه بلَغَ آخِرَه، وقطَعَ تعلُّمَه، وتناهى في حِفظه، وكلُّ حاذقٍ بصناعةٍ فهو الَّذي تناهَى فيها، وقطعَ تعلُّمَها[5]. لكنَّ الفراهة تدلُّ أيضًا على معنى: البطَر والأشَر[6] والاستطالة على الخَلْق بنِعَم اللّه واحتقارهم، كما سلف الكلام عن ذلك في توجيه قراءتَي ﴿فَرِهِينَ﴾ و(فرِهين)، ولأجل هذه السَّعة في احتمال لفظ الفراهة على أكثرَ

بـين الـفـراهـة والـحِـذْقِ عُـموم وخُـصـوص مُـطـلَـق، فـكُـلُّ حِـذْق فـراهـةٌ وليس كلُّ فراهةٍ حِذْقًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 288.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 175.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 132.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 85.
(6) الرّاغب، المُفردات: (فره).

من معنًى، تَعدَّدَ الكلام حول بيان المُراد بقوله: ﴿فَرِهِينَ﴾ وكان الحِذْق واحدًا منها، وقيل: هو في النَّشاط حقيقةٌ، واسْتِعْمالُه في الحذاقة مجازٌ[1]. ولا ينافي ذلك تفسيرَ الفراهة بالحِذْق في بعض كُتب اللّغة؛ لأنَّهم لا يُفرِّقون بين الحقيقة والمجاز الواردَينِ عن العرب، أوْ أنَّه لِشُيوعه صار حقيقةً عُرفية فيه فلا غبار عليه[2]، وعليه يكون بين الفراهة والحِذْق عمومٌ وخصوص مُطلَق، فكلُّ حِذْق فراهَةٌ، وليس كلُّ فراهَةٍ حِذْقًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 112.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 22.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»